مُقَدِّمَة

«قال الراوى»[1] هكذا كانت تبدأ أكثر القصص العربية القديمة، وغالباً ما كانت تلك القصص تنتهى بعبارات مشابهة، يلقى فيها القصاص بمسئولية مصادر الحكاية على راوٍ، ويعلق مصداقية ما ورد فى الحكاية على عاتق ذلك الراوى المفترى عليه فيقول حيناً: «وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح» ويقول حيناً آخر: «وهذا يا سادة يا كرام ما قاله الراوى بالكمال والتمام» أو غير ذلك من العبارات التى تؤدى هذا المعنى.

والأصل فى وجود هذا الراوى هو الأدب الشفهى، لأن القاص فى هذا الأدب يواجه جمهوره مواجهة صريحة - لشيوع الأمية بين هذا الجمهور، ولعدم تواقر الوسائط السمعية والبصرية التى نعرفها اليوم كالراديو أو المسجل - ومن ثم فإن جمهور هذا القاص كان على معرفة تامة به، فإذا ما حَدَّث الراوى هذا الجمهور عن أحداث وقعت فى بلاد الهند أو السند، وهم يعرفون أنه لم يفارق داره، أو حدثهم عن أحداث وقعت فى سالف العصر والأوان، وهم يعرفون مولده ويعرفون أباه وأمه، فإن تصديق ما يتفوه به حينئذ يحتاج إلى التنويه إلى مصادر المعرفة التى استقى منها حكاياته وأخباره، من أين جاء بتلك الأخبار الطريفة التى يرويها؟ ومن الذى أخبره بذلك؟ لابد إذن من شخصية خيالية تضطلع بعبء الرواية، (إلا أن يكون القاص نفسه رحالة كابن بطوطة أو ابن جُبير، وسبق له أن زار بلاداً لم يزرها جمهوره، أو يكون معمِّراً عاش فى جيل لم يعشه هذا الجمهور، فى هاتين الحالتين فقط يمكن للقاص أن يحكى بحرية، وأن يقص ما يشاء، دون أية حاجة لوجود هذا الراوى المستقل عن ذاته) .

---

(١) تكرر ذكر هذه العبارة فى « سيرة الملك سيف » مثلاً أكثر من مئة مرة .
« سيرة الملك سيف بن ذى يزن » فى أربعة مجلدات / مكتبة الجمهورية العربية ـ القاهرة د . ت

وعلى الرغم من أن الجمهور المتلقى لمادة القصص أصبح فيما بعد لا يعنى كثيراً بالمطابقة التاريخية لأحداث هذه القصص، وبخاصة بعدما تحولت الحكايات إلى قصص مكتوبة -إبان العصر اللاحق للعصر الشفهى- فإن تقنية الراوى ظلت باقية حتى عصر الكتابة، وبرع القاص العربى براعة منقطعة النظير فى استخدام هذه التقنية، إذ جعل للراوى مكانة وشهرة قد تفوق مكانة الشخصيات وشهرتها، بل تفوق مكانة المؤلف نفسه، وانظر إلى عيسى ابن هشام فى المقامات، تجده أشهر من الهمذانى نفسه، واسم شهرزاد أكبر من أن ينازع فيه، فهى أشهر من شهريار، بل إن البطل الحقيقى فى الليالى هى شهرزاد وليس شهريار أو علاء الدين أو السندباد، وسلاح شهرزاد الذى انتصرت به وحازت به لقب البطولة هو لسانها.

وقد دفعت هذه البراعة العربية فى استخدام الراوى بعض الباحثين إلى القول بأن العربى أفضل من يروى حكاية أو يسردها، فإذا كان الهنود - كما يقول - قد أوتوا موهبة فى توليد الحكايات «فإن العرب - حسب وجهة نظر هذا الباحث - رواة للحكايات الخرافية لا مثيل لهم»(١).

وتعود مهارة العرب فى صناعة الراوى - كما يرى - إلى تلك القدرة التى أمدتهم بها البداوة من قوة الملاحظة، ودقة التصوير، ولئن كان هذا الباحث محقاً فى اعترافه بهذه الميزة فى الفن القصصى العربى، فإنه قد حاد عن الصواب عندما وصف العرب بأنهم كانوا «مجرد أصدقاء للحكايات الخرافية أكثر منهم مبتكرين لها» وأنهم «لم يكونوا خالقين لها»(٢) لأنه بهذا يفصل بين صناعة الحكاية وبين روايتها، ولو اتخذنا هذا المنطق منهجاً لسلبنا أكبر الأدباء صيتاً وفناً من صفة الابتكار والخلق، فأصل الحكاية ليست فناً، لكن طريقة روايتها هو الفن، وكم من حكاية كانت مطروحة على طرقات العامة فالتقطها قلم فنان كشكسبير، أو دانتى، أو جوته، فحولها درة فنية غالية ، ثم أين هى ألف ليلة وليلة الهندية أو الفارسية ؟؟ ليس هناك إلا ألف ليلة وليلة العربية، لأنه ليس هناك إلا شهرزاد واحدة هى شهرزاد العربية فحسب .

لقد أثمرت الموهبة العربية أشهر الرواة فى التاريخ وهى شهرزاد، كما أثمرت عيسى

---

(١) فريدريش فون دير لاين «الحكاية الخرافية» ترجمة نبيلة إبراهيم - ط غريب د.ت صـ٢٢١.
(٢) المرجع السابق صـ٢٢١ .

ابن هشام والحارث بن همام وغيرهم ، وأخذ كل فن عربى جيد فى مجال القصة يتخذ من تقنية الراوى وسيلة للإجادة والتفوق، حتى بهر هذا الراوى أعين الباحثين فى التراث القصصى القديم فلم يروا سواه.

والحقيقة أن القاص العربى لم يهتم بصناعة الراوى فحسب بل أولع به وتفنن فى استخدامه وفتن به، لذلك نجد الحكاية الواحدة من حكايات العشاق مثلاً تروى عشرات المرات بطرق مختلفة، دون أن يمل القاص أو يمل المتلقى منها، فنرى حكاية المجنون تروى بروايات مختلفة حسب اختلاف الرواة ، فيضع له أهل العراق كتاباً يجمع كل أخباره برواية، ثم تأتى عشرات الروايات فى الأغانى وفى مصارع العشاق، ومنازل الأحباب، والواضح المبين، وأسواق الأشواق، وتزيين الأسواق، وفى كل رواية جمال جديد وطرائف جديدة وهكذا. .. إلى درجة يمكن معها القول بأن فن القص عند العرب هو فى حقيقة أمره فن للرواية ولصناعة الراوى وتعدد الروايات، ولذلك كان الراوى المدخل المناسب لدراسة فن القص عند العرب. وهو العنصر الذى تجلت فيه موهبتهم القصصية.

وهناك أسباب كثيرة جعلت القصة العربية تتكىء على هذه التقنية أكثر من غيرها، من هذه الأسباب:

١- شيوع الثقافة الاتباعية السلفية على الفكر العربى، فى المجالات الدينية والأدبية واللغوية والفكرية، فقد كان الراوى - بلا جدال - المصدر الأول للمعرفة فى مجال العقيدة والأخلاق واللغة والتاريخ والأدب والأنساب، لذلك كانت أشهر الاختلافات الدينية نابعة من اختلال الثقة فى أسانيد الرواة أكثر من كونها نابعة من اختلاف الآراء أو طرق البحث والتحليل، وأصبح الصحيح هو الأوثق رواية والأصدق رواة، و لم يكن ذلك فى مجال الحديث الشريف والقرآن الكريم فحسب، بل أصبح فى مجال اللغة والشعر والأخبار والحكايات والعادات والحقائق العلمية. فالشعر الجيد هو ما صحت روايته عن القديم، واللغة الجيدة الفصيحة هى ما صحت روايتها، والعلم الصحيح هو ماصحت روايته عن السلف ، وغطى هذا النمط من الثقافة على أكثر المجالات المعرفية والعقلية فى هذه العصور، حتى أصبح الراوى سمة ثقافية لهذا العصر، فأصبح مصدراً كما أنه أصبح وسيلة للإقناع، فلا ضير بعد ذلك على الأدباء أن

يتخذوا من هذه السمة الشائعة تقنية فنية وأمثولة يصبغون بها أدبهم بصباغ الواقع، ويتقمصون بها قمص العلماء، ويتزيون بأزيائهم.

٢- أن مفهوم الخيال عند العرب كان قريباً من مفهوم الكذب، لذلك حرص القصاص القدماء على أن يتخلصوا من هذا المأزق فيلحقون ما يقصونه إلى راوية، فيجعلون المادة الإخبارية فى صيغة قريبة من الاحتمال أو التصور، لأن المتلقى لهذه القصص - رغم أنه فى عصر الكتابة - لم يزل ينظر إلى صدق القصة وكذبها بالمنظار التاريخى التسجيلى. لذلك نجد معاوية يرمى وهب بن منبه بالكذب، عندما سمعه يقص سيرة ذى القرنين ويحكى أنه كان يربط خيوله بالثريا[١]. فقد كان السامع يعتقد فيما يروى بوصفه تاريخاً وقعت أحداثه وليس بوصفه وسيلة خيالية للاستمالة أو التعبير.

٣- أن العربى بطبعه يميل إلى الاختزال والاجمال ولا يميل إلى التفصيل والإطالة، لذلك كثر أسلوب التقرير السردى، وقل أسلوب الحوار فى القصص العربية القديمة، فأسلوب التقرير السردى أسلوب اختزالى تقويمى، يلخص الكاتب فيه المشهد الكامل فى جملة، ويجمل التجربة الكاملة فى عبارة واحدة، وهذا الأسلوب لابد أن تبرز فيه صورة الراوى لأنه مرتبط به.

وفى العصر الحديث ظهرت أشكال متنوعة من الأدب السردى، وتطورت أساليب الأدب ومضامينه، ومع ذلك فإن الأدب القصصى العربى لم يشأ أن يتخلى عن تقنية الراوى أو شيوع أسلوب التقرير السردى، إذ نجده يطل برأسه فى الرواية، بل فى أكثر أشكال الأدب حداثة وهى القصة القصيرة، ليقول لنا مرة أخرى: «يقول الراوى الملفوق فؤاده من فعل الأنذال، ومن تغير الأحوال: يا سادة يا كرام، صلوا على خير الأنام[٢]» أو يقول: «قال الراوى: بلغنى أيها القارئ المجهول، الذى يبحث عن الحكمة فى المعقول والمنقول.. [٣]»

لكن تقنية الراوى فى القصص الحديثة لم تستخدم هذا الاستخدام التراثى

---

(١) عماد الدين أبو الفدا ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ط دار الفكر العربي جـ٣ صـ١٠١ .

(٢) طه وادى «مواقف مجهولة من سيرة صالح أبو عيسى» في مجموعة «حكاية الليل والطرق» ط دار مصر لطباعة سنة ١٩٩١ صـ٢٢ .

(٣) طه وادى «حكاية معروف الراعى الفقير» في مجموعة «حكاية الليل والطرق» السابقة صـ٤٦ .

التضميني فحسب بل استخدمت باعتبارها لوناً أو خيطاً في منظومة أو لوحة جمالية دالة مكونة من عدد هائل من الألوان، والخيوط، والظلال، وتعددت أشكال الرواة في القصص الحديث من راوٍ ظاهر أو راوٍ خفي، وراوٍ عليم أو راوٍ غير عليم، وراوٍ ثقة أو راوٍ مجرح. ....إلخ.

وتعددت وظائف هؤلاء الرواة وتنوعت علاماتهم ووظائفهم. وقد اهتمت الدراسات البنيوية والأسلوبية الحديثة بدراسة الراوي في النص القصصي حتى غدت دراسته في الغرب شرطاً بل ضرورة في سبيل فهم عناصر السرد القصصي جملة، مثل زاوية الرؤيه، والمسافة، والزمان، والمكان، والشخصيات، واللغة والمؤلف وغيرها.

وعلى الرغم من طغيان الراوي على أساليب القصص العربية القديمة، وازدياد الاهتمام به في الدراسات البنيوية والأسلوبية المعاصرة في الغرب، فإن الساحة النقدية العربية الآن تكاد تخلو من الدراسات التي تفرده بالدراسة، فقد عالجت بعض الدراسات عنصر الراوي باعتباره خيطاً صغيراً داخلاً في إطار ما يسمى «بزاوية الرؤية» أو «وجهة النظر» أو «المنظور» أو «التبئير» حسب اختلاف النقاد العرب في مسمى هذا المصطلح، وعالجته دراسات أخرى في إطار البنية السردية لخطابات النص القصصي، ناظرة إليه باعتباره مظهراً سردياً و لا يتوفر على الراوي فحسب، بل يأتي ذكره فيها عرضاً، ضمن دارسه عناصر أخرى تحظى لدى الدارسين بأهمية أكبر، وليس هناك دراسة عربية أفردت الحديث عن الراوي بكتاب مستقل سوى تلك الدراسة التي أصدرتها الباحثة يمنى العيد، بعنوان «الراوي الموقع والشكل دراسة في السرد الروائي» سنة ١٩٨٦[١] . وهي - رغم سبقها في هذا المجال - فإنها لا تعنى عناية كبيرة بدراسة الراوي باعتباره تقنية فنية، بل ينصب اهتمامها في المقام الأول على الجوانب الأيديولوجية في النص، وتختزل دور الراوي وتحصره في كونه موقعاً أيديولوجياً وبذلك فإنها لا تبحث عن الراوي في إطار زاوية الرؤية فحسب، بل تتحدث عنه في إطار عام وهو المنظور بكل جوانبه الفكرية والمذهبية والسياسية، وتجعل من هذا الراوي مجرد عنصر سردي، يوجه إلى قراءة المضمون الأيديولوجي

---

(١) يمنى العيد «الراوي الموقع والشكل ، بحث في السرد الروائي» ط مؤسسة الأبحاث العربية بيروت سنة ١٩٨٦ .

الذى يحتويه النص، ولذلك فإن الباحثة تربط بين انفتاح موقع الراوى على مواقع الشخصيات وبين الممارسة الديمقراطية، كما تربط بين انغلاق هذا الراوى وبين غياب الممارسة الديمقراطية ، بمعنى أنها تجعل الفن نفسه مظهراً أيديولوجياً أو سياسياً. والدارسة رغم كل ذلك سباقة للموضوع .

من ثم كانت دراسة الراوى ضرورة، لأنه من أوضح العناصر فى القصص العربية القديمة والحديثة، ولأنه المدخل الحقيقى لدراسة السرد، والمفتاح المناسب لفهم النص، ولأنه لم ينل حظه من الدراسة فى البيئة العربية.

وكان على هذه الدراسة - وقد حاولت شق هذا الطريق - أن تتناول عدة قضايا رغم أنها أولية فإنها ضرورية، مثل دراسة مفهوم الراوى، وتاريخ دراسته، ووظائفه، وعلاماته، وأنواعه، وتأثيره فى النص وتأثير النص فيه ، أى أنها تدرس الجوانب النظرية المتعلقة بالراوى ، لذلك جعلت موضوع هذه الدراسة «الراوى وأثره فى بناء النص القصصى» وأفردت كل جانب من الجوانب السابقة بفصل فيها، وشفعت كل جانب منها بنماذج من القصص العربى الحديث، حتى لا تكون النتائج التى تقرها مجرد تهويمات نظرية .

ولذا فقد جاء الكتاب فى خمسة فصول :

الفصل الأول يتحدث عن **مفهوم الراوى**، وهدفه الوصول إلى تحديد دقيق للمفهوم ومناقشة جميع الأفكار المتعلقة به، وقد تبين من خلال الدراسة أن هذا المفهوم لم يكن ثابتاً بل كان متطوراً بتطور الزمان، مما دعا إلى تتبعه عبر التاريخ ، ولذلك جاء **الفصل الثانى تاريخ الراوى** ليشرح كيف تطورت المفاهيم المتعلقة به، وانتهى هذا الفصل إلى أن مفهوم الراوى فى حقيقته ليس تعريفاً له حدود منطقية تصاغ فى جملة، بل هو مجموعة من الوظائف والعلامات التى توجد بوجوده وتختفى باختفائه. ومن ثم جاء **الفصل الثالث** ليبين **وظائف الراوى وعلاماته**، وقد تبين من تحليل النصوص خلال هذا الفصل أن الراوى ليس نوعاً واحداً بل أنواع كثيرة، وأن كل نوع له علاماته وخصائصه مما أحوج إلى دراسة هذه الأنواع فى **الفصل الرابع**، وكشفت دراسة كل نوع من **أنواع الرواة** أن هناك علاقة وطيدة بين كل نوع من أنواع الرواة وبين الشكل الفنى الخاص المرتبط به، وقد أسفرت دراسة هذا الفصل عن وجود

علاقة من هذا القبيل فى ثلاثة جوانب محددة فى النص، وهى :

١- القالب الأدبى ، وبخاصة قالب الرواية وقالب القصة القصيرة ، باعتبارهما أوضح الأشكال القصصية المعاصرة.

٢- البناء الفنى .

٣- الأسلوب .

فهناك علاقة مثلاً بين الراوى الظاهر والبناء المؤطر، وهناك علاقة بين الراوى العليم المنقح والبناء المفكك ، وهناك علاقة بين الراوى المستتر وأسلوب العرض ، كما أن هناك ارتباطاً بين أسلوب التقرير السردى والراوى الظاهر، وغير ذلك من النتائج الفرعية ، مثل تحديد مفهوم الراوى وبيان التطور الذى أصاب هذا المفهوم، وكذلك الكشف عن علامات الراوى .

obeikandl.com